دار الحديث النورية

للدكتور اسعد طلس
عضو المجمع العربي بدمشق

هي أول دار حديث أنشئت في الاسلام كما يقول السبكي [1] وقد خرجت جمهرة عظيمة من المحدثين والمؤرخين . وتقلب عليها طائفة من الشيوخ والمدرسين لم تحظ بهم مدرسة من المدارس بدمشق كما سترى ذلك فيما بعد

﴿ تاريخها ﴾ ليس على باب هذه الدار ولا في حيطانها كتابة تعرفنا بها او تكشف لنا عن تاريخها. ولكن امام بابها باب المدرسة العادلية الصغرى التي بنتها الاميرة الايوبية السيدة زهرة خاتون ابنة الملك العادل [2] . والمؤرخون الذين يحدثوننا عن العادلية الصغرى يقولون إنها امام دار الحديث النورية ، كما يقولون انها تقع بين دار الحديث الاشرفية — وهي ما تزال عامرة موجودة مشهورة — وبين المدرسة العصرونية التي درست وبني على انقاضها مخازن ودور ولم يبق الا [3] جزء من صحنها في بركة وايوان للصلاة وما عدا ذلك درس [3]

واسمها يدل على ان بانيها هو السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر التركي السلجوقي مؤسس الدولة النورية العظيم (— ٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م) وقيل بل التي بنتها هي السيدة عصمة الدين خاتون زوج صلاح الدين وهو خلاف المعروف ولم أر من ذكره سوى بدران

---

(١) نقله الشيخ عبد القادر بدران في « منادمة الاطلال » (ص ٧٨) من مخطوطة دائرة اوقاف دمشق ولا يذكر السبكي في الطبقات الكبرى (٤ : ٢٧٧) سوى قوله « وكان الملك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد بنى له — اي لابن عساكر — دار الحديث النورية فدرس بها الى حين وفاته »

(٢) العادلية الصغرى هي غير العادلية الكبرى — مقر المجمع العلمي العربي بدمشق — وسنصف هذه فيما بعد — وأما العادلية الصغرى فهي في سوق العصرونية في جانبه الشمالي ، وسندفها بعد أيسر

(٣) هي في محلة حجر الذهب المعروفة الآن بباب البريد في دخلة العصرونية بناها عبد الله بن هبة الله ابن أبي عصرون الموصلي (٤٩٢ — ٥٨٥) كان عالماً مدرساً ولاه نور الدين وصلاح الدين القضاء بالشام وكان نور الدين يستفتيه فبنى له عدة مدارس بسورية وبنى هو مدرسته هذه

في «منادمة الاطلال» ولعلها بنت فيها شيئاً أو وقفت لها وقفاً فظن بعضهم انها هي التي بنتها

ولا يجزم الدكتور سوفاجه بشيء في مبدأ امرها بل يقول أنها بنيت بين سنة (٥٤٩ هـ — ١١٦٤م) وهي السنة التي امتلك نور الدين فيها دمشق وبين سنة (٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م) وهي السنة التي مات فيها[1]. ولم استطع انا على كثرة تنقيبي الاهتداء الى نص يقطع بذلك ويعتمد على حوادث تاريخية

من المعروف المتفق عليه ان نور الدين بناها لمحدّث دمشق العظيم ومؤرخها الحافظ بن عساكر ويظهر ان المؤرخ الدمشقي بعد ان طوف في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه يطلب العلم والحديث استقرت به النوى في مسقط رأسه فأخذ يدرس ويؤلف ولم يكد بالشام ايامئذ دور علم كالتي رآها في بغداد او فارس والمشرق

ويظهر انه كاشف نور الدين بذلك او ان نور الدين نفسه قد أحسّ بذلك فبنى له هذه الدار وظل يدرس بها ويستقبل العلماء والطلاب الى أن وافاه أجلهُ فخلف من بعده نفر من اسرته يقتفون أثره، وسترى تفصيل ذلك فيما بعد

وقد ظلت هذه الدار عامرة يؤمها الطلاب والعلماء من أقصى الارض ففي شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وخمسمائة للهجرة زار دمشق الرحالة الاندلسي ابو الحسين محمد بن احمد المعروف بابن جبير الكناني فنزل بها وهذا نص كلامه « . . وصلنا دمشق في الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول والخامس ليوليه ، واستهل هلال ربيع الآخر يوم الاربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه ونحن بدمشق نازلين منها بدار الحديث قرب جامعها المكرم[2] » ومن المؤسف جداً ان ابن جبير على الرغم من اقامته في هذه الدار نحواً من شهرين لم يحدثنا بشيء عنها ولا عمن فيها من الطلاب والشيوخ ولا عما يقرأ فيها من العلم وكتبه على كثرة ما كتب عن دمشق ومعاهدها وأخبارها . وكل من يحدثنا عن هذه الدار بعد ابن جبير لا يحدثنا بشيء من تاريخها فلا نعرف ما أصابها ولا الأدوار التي مرّت بها ولا ما وقف في سبيل مصالحها . وكل ما نعرفه عنها هو ما يحدثنا به النعيمي في كتابه « تنبيه الطالب وارشاد الدارس » نقلاً عن المؤرخ الاسدي في كتابه « الكواكب الدرية في السيرة النورية » من أن وقف هذه المدرسة كان قليلاً . وقد نقل هذا النص بدران في منادمة الاطلال ولم يزد عليه[3]. ويقول المؤرخ الدمشقي ابن كثير في

(١) J. Sauvaget, Les Monuments Historiques de Damas, 53

(٢) « رحلة ابن جبير » ص ٢٣٩ طبع مطبعة السعادة بمصر

(٣) المنادمة — مخطوطة الاوقاف — ص ٧٨

«البداية والنهاية» « ان في سنة احدى عشرة وستمائة وسع الخندق مما يلي القيمازية [١] فأخربت دور كثيرة وحمام قيماز وفرن كان هناك وقفاً على دار الحديث النورية » [٢] . وقد نقل هذا الكلام عبد القادر بدران وقال بعده : « ولما بنى الملك الاشرف دار الحديث الاشرفية غربيها — سنة ثلاثين وستمائة — شرط أن يؤخذ من وقفها الف درهم فتضاف الى وقف دار الحديث النورية فاصلح حالها » [٣]

***

وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة حين دخل التتار دمشق احترق قسم كبير من المدينة وكانت هذه الدار وغيرها من معاهد العلم طعمة للنار . قال الذهبي في مختصر تاريخ الاسلام « وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة دخل التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والفسق ونهبوا الصالحية وسبوا أهلها ووقع الحريق من صاحب سيس والكفرة وعملوا للنجنيق والنقوب فأحرق أهل القلعة دار السعادة — مقر النائب — ودار الحديث الاشرفية ، والنورية ، والعادلية ، وخربت تلك المحلة ، وبقيت محلة باب البريد اصطبلاً فيه الزبل نحو ذراع [٤]

ويظهر ان هذه الدار قد أعيد بناؤها أو بناء بعض مرافقها بعد تلك النكبة حتى جاء العصر التركي فأخذت تضمحل حتى كادت تندرس . ويحدثنا الشيخ بدران عنها في هذا العصر فيقول « تقلبت بها الايام والدهور فأصابها ضريب مما أصاب دار الحديث الاشرفية فصارت للسكنى وطمر محراب مسجدها وطمرت بركة مائها لتغير رسومها فأرشد الله تعالى لاستخلاصها العالم الفاضل الفقيه الشيخ أبا الفرج ابن العالم الفاضل الصالح الشيخ عبد القادر الخطيب الدمشقي فانقذها من يد مختلسها وجلس يقرىء فيها الدروس

ولقد شاهدتها وتأملتها أثناء كتابتي لهذه السطور فاذا هي الآن تشتمل على دهليز لطيف الخ » [٥] . هذا ما يقوله بدران

أما في أيامنا هذه فقد تهدمت ولم يبق من آثارها شيء إلاّ بابها وصحنها وفيها غرفة تكاد ان تنتض والقبلية متهدمة أيضاً والمحراب النفيس عرضة للاندثار وهي اليوم مقر لبعض الفقراء

---

(١) هي مدرسة صارم الدين قيماز النجمي وكان متولي أسباب ملاح الدين في مجيئه وبيوته . وقد درست وكانت دار بني العمر والفرج ويقول بدران ص ٢٦٣ يؤخذ من كلام ابن كثير والعماد الكاتب أنها كانت بالقرب من دار الحديث الاشرفية — بالصروية — (٢) البداية والنهاية ج ١٣/٦٨

(٣) القاعدة ص ٧٨ (٤) النظرة في القاعدة لبدران ص ١٧٥ أثناء كلامه على المدرسة العادلية الصغرى

(٥) النظرة في القاعدة لبدران ص ٧٧

﴿ مدرسوها ﴾ : أول من درس فيها حافظ دمشق علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق الكبير (٤٩٩هـ—١١٠٥م— ٥٧١— ١١٧٦) [١] وقد ظل يدرس فيها الى أن مات. ثم تولى امورها ابنه القاسم ابو محمد بهاء الدين الحافظ المسند كابيه (٥٢٧ هـ — ١١٣٣م — ٦٠٠هـ —١٢٠٣م)[٢] والمؤرخون يذكرون ان القاسم هذا كان كثير التعفف عن مالها وانهُ لم يتناول من مرتبه شيئاً بل جعلهُ لمن يرد عليها من الطلبة والعلماء . وقيل انهُ لم يشرب من مائها ولا توضأ منالاة منه [٣] . وبعد ابي محمد هذا اخذ يتوالى عليها نفر من بني عساكر [٤] ثم اسندت الى الحافظ الدمشقي زيد الدين خالد بن يوسف بن سعد النابلسي [٥] ثم تاج الدين ابو محمد عبد الرحمن بن ابرهيم ابن سباع الفزاري المصري المعروف بابن الفركاح (٦٢٤ هـ—١٢٢٧م—٦٩٠هـ—١٢٩١م)[٦] ثم توالى عليها طائفة من المدرسين [٧] أشهرهم الحافظ المؤرخ العظيم ابو محمد القاسم بن محمد بن يوسف علم الدين البرزالي صاحب ذيل تاريخ ابي شامه والمعجم الكبير (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م—٧٣٩هـ=١٣٣٩م) [٨] . ثم جماعة لم تصلنا أخبارهم

﴿ موقعها وتخطيطها ﴾ : لا تزال الدار موجودة في حي العصرونية كما تقدم ولم يبق من بنائها الا جهتها الجنوبية وفيها الباب الحسن وجرابها ، وبعض مرتفقاتها وعلى الرغم من عدوان الدهر عليها ، لا تزال معالمها موجودة وخطوطها الرئيسية معروفة

بنيت هذه الدار فوق مربع مساحته (٣٠ر١٦ متراً × ٢٠ر١٧ متراً) كما يذكر الدكتور

---

(١) انظر ترجمته في معجم الادباء لياقوت ٥/١٣٩ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/٢٧٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٤/٢٣٩ ؛ وطبقات الحفاظ للذهبي ٤/١٢٢ . ومقدمة الجزء الاول من تهذيب تاريخ دمشق المطبوع بدمشق بعناية عبد القادر بدران وبروكلمان في : G. A. L. ١/٣٣١ وذيله ١/٥٦٦

(٢) انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٤/١٤٨ وطبقات الحفاظ للذهبي ٤/١٥٦ ، وكشف الظنون للحاج خليفة ٢/٥٧٥ وبروكلمان G. A. L. ١/٣٣١ والذيل ١/٣٦٩ (٣) انظر بدران ص٧٩

(٤) نذكر منهم : زين الاسناء الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ، وعبد الوهاب بن زين الاسناء . انظر بدران ص٧٩ (٥) لم نعثر فيما بين يدينا من المصادر على ترجمته

(٦) انظر ترجمته في فوات الوفيات للكتبي ١/٢٥ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/٦٠ وشذرات الذهب لابن العماد ٥/٤١٣ وبروكلمان G. A. L. ١/٣٩٧ والذيل ١/٦٨٦

(٧) نذكر منهم الحافظ محمد بن علي بن محمد الصابوني ، ثم محمد الدين بن المختار ، ثم نجم الدين بن الحنبلي ثم شرف الدين احمد بن نسمة النابلسي ثم علاء بن العطار ثم البرزالي

(٨) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٦/٢٤٦ ، وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٥٣ وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص١٨ وبروكلمان G. A. L. ١/٣٣ والذيل ٢/٣٦

سوڤاجه[1] يتوسط هذا المربع بركة جميلة للوضوء يكتنفها من الشرق والغرب غرف وفي الجنوب مصلى واسع

والى القارىء وصفها كما كانت قبل ثلاثين او اربعين سنة معتمدين على ما ذكره المؤرخ بدران : هي الآن تشتمل على دهليز لطيف فيه عن يمين الداخل حجرة وعن يساره باب مسدود ويظهر انهُ باب حجرة ايضاً ولكنها صارت خانوتاً لبضائع والتجارة ولها ساحة لطيفة وفي وسطها بركة ماء على نمط قديم وهندسة لطيفة وبهـا مسجد طوله احدى وعشرون خطوة وعرضه خمس خطوات وسقفه معقود بالحجارة والآجر الثمين وعمرانه من الحجر المحفور المحسّن. وبالجانب الشرقي من الساحـة حجرتان جديدتان وفوقهما غرفتـان مثلهما وهما من بناء أهل الخير بواسطة الشيخ عبد القادر بن أبي الفرج بن عبد القادر المطيب وفوق دهليزها غرفة أيضاً »[2]

هذا وصفها كما كانت أيام بدران أما وصفهـا كما تخيلهُ « الدكتور سوڤاجه فكما يلي : يرى الداخل اليها أول ما يرى بعد أن يترك الباب قبة ضخمة من تحتها بهو على النمط المعروف في أكثر المعاهد البلدية في هذا العصر والى جانبي البهو غرفتان شرقية وغربية ثم يدخل الى الصحن المربع وفي شرقيه غرفة مستطيلة والى امتدادها غرفة أخرى أصغر . ثم الى غربي الصحن غرفتان كهاتين ، وفي جنوبي الصحن القبلية الواسعة المستطيلة[3] . هذا هو موجز الوصف الذي يذكره سوڤاجة معتمداً قواعد عمرانية وملاحظات فنية دقيقة . أما وصفها في أيامنا هذه فكما يلي : يدخل من الباب الى صحن الدار مباشرة أما البهو والغرفتان الشرقية والغربية والقبة فلم يبق لها من أثر وقد أرجع البـاب نحواً من ثلاث أمتار . وفي الصحن البركة المثمورة بالتراب والى جانبها غرفتان شرقية وغربية بناؤها حديث ومن فوق الغرفة الشرقية غرفة علوية يصعد اليها بسلم حجري من الصحن . أما القبلة فلم يبق منها إلا حائطها الجنوبي وفيه المحراب الذي يكاد أن ينقض والحائطان الشرقي والغربي آخذان في الاندثار

﴿ بناؤها ونقوشها ﴾ من أروع ما يجتذب اطلال هذه الدار اطار بابها وحائط قبلتها الجنوبي ومحرابه ، فأما اطار الباب ورقمته[4] وهو من الحجر الاصفر الجميل ، الحسن في تنسيقه . وأما حائط القبلة فمن الحجارة المنحوتة الضخمة ويرى سوڤاجه انها كانت مأخوذة من معبد قديم كان بجوارها . وأما المحراب فهو من حجارة منحوتة أيضاً منقول من موضع

(١) es Monuments Ayyoubides, 15

(٢) منادمة الاطلال ص ٧٧ (٣) Les Monuments Ayyoubides de Damas

(٤) يريد بالرقمة ما يسميه رجال الآثار من الفرنجة : Tabula ansata

آخر قديم . وما عدا هذا فكل ما في الدار من عناصر البناء عادي أو دون العادي فالآجر المستعمل في بناء العقود والأقواس والكوى هو آجر رديء الجنس سهل التفتيت ، والخشب المستعمل في البناء والاسكفات هو من الخشب العادي أما نقوشها فقليلة جداً وهي نقوش المحراب والباب. فأما نقوش المحراب فهي نقوش قديمة منقولة من مكان قديم كما يرى سوفاجه [1] وهي نقوش تشكل نصف دائرة من الزخارف للعجنة تحيط بقنطرة المحراب وهي نوعان (الأول) نقوش زخرفية تشبه بعض الشيء النقوش العربية المعروفة بـ arabesque و (الثاني) نقوش تمثل بعض الفواكه الاقليمية من عنب وتفاح وورق جيد. وقد نفذت هذه النقوش بشكل بارز . وفي هذا دليل على ان هذه النقوش منقولة من معهد قديم وإلا فكيف ترسم هذه الثمرات البارزة الجميلة بين يدي الواقف في حضرة الله . واما نقوش الباب فنقوش ساذجة بسيطة وهي عبارة عن خطوط ثلاثة غائرة في الحجر تحيط بالباب من جهاته الثلاث ومن فوقها رقعة مستطيلة على امتداد اسكفة الباب العليا وهي رقعة غائرة ايضاً يظهر انهم كانوا يريدون ان يكتبوا عليها بعض الكتابات فلم يفعلوا

﴿ مزاياها الفنية ﴾ : قلنا في صدر هذا البحث ان هذه الدار هي اول دار حديث بنيت في الاسلام كما يرى ذلك بعض المؤرخين واذا صح هذا كان من الطبيعي ان تتخذ انموذجاً لبناء دور الحديث التي بنيت بعدها كدار الحديث الاشرفية وغيرها من الدور

وان من المؤسف ان تكون معالمها غير واضحة وضوحاً يبين تقسيماتها ومرتفقاتها وغرفها ثم ان يد المخلسين التي اختلست قسماً كبيراً منها تضطرنا الى أن نقول ما نقوله بشيء من الحدس والتخمين

ويظهر من الاستنتاجات العمرانية التي انتهى اليها سوفاجه والتي أشرنا اليها حين بحثنا عن مرقمها وتخطيطها أن نمط البناء العراقي واضح فيها كل الوضوح كما يتجلى ذلك في اسلوب بناء الاقواس والقناطر والآجر المستعمل في ذلك وقد بحثنا هذا في مقالنا المنشور عن قبة صفوة الملك في عدد مارس سنة ١٩٤٣

ويلاحظ ان هناك شبهاً شديداً بين نمط بناء الدار وبين بعض المدارس الدمشقية كالمدرسة الريحانية [2] والمدرسة العذراوية [3] وهذا الشبه يتجلى بوضوح في خبو هذه العناصر من طابع

(١) Les Monuments Ayyoubides I: I

(٢) الريحانية هي مدرسة ريحان الطواشي خادم السلطان محمود بن زنكي وهي بجوار المدرسة النورية من الجانب الغربي وهي اليوم كتاب للاطفال . انظر بدران ص ٢٣

(٣) العذراوية هي مدرسة السيدة عذراء بنت صلاح الدين (٥٩٣) وهي بجوار المدرسة النجيبية يرقاق للبلط غربي حمام الست عذراء وقد صارت الآن داراً ولم يبق منها سوى قبر الواقفة انظر بدران ص ١٧٥

لا تكاد تخلو منهُ مدرسة وهو الرواق . ومن هنا يمكننا أن نقول ان نظام الاروقة لم يكن معروفاً في المدارس الاولى التي بنيت بدمشق في اوائل العصر النوري والصلاحي

ويمكننا بالقياس الى ما عرف من نظام المدارس المتأخرة عن النورية ان القبلية كانت تستعمل للعبادة والدراسة معاً وان الغرفتين المستطيلتين الشرقية والغربية كانتا تستعملان للتدريس . أما الغرفتان الصغريان اللتان على امتداد هاتين فقد كانت إحداهما تستعمل غرفة للشيخ وثانيتهما مكتبة وأما الغرفتان اللتان تكتنفان المدخل فاحداهما للخادم والاخرى للذخائر والمؤن

ويلاحظ الاستاذ سوفاجه أيضاً [٢] ان المدارس ودور الحديث التي ظهرت بكثرة في الدولتين النورية والصلاحية هي معاهد شديدة التأثر بالفن الاسلامي العراقي او المشرقي بوجه عام لان بناة هذه المعاهد أكثرهم من أقوام جاءوا بلاد الشام من تلك الاصقاع فأحيوا فيه نظماً ما كان يعرفها . وطبيعي اذن أن يكون الأثر العراقي واضحاً في أسلوب البناء كما كان واضحاً في الانظمة المتبعة في هذه المدارس . ويغالي الاستاذ فيقول : ان هؤلاء الامراء الذين جاءوا الشام من العراق ، لما كانوا غرباء عن البلاد وغير مطمئنين الى اهلها في ادارتهم وسياستهم لم يكونوا كذلك — في أغلب الظن — مطمئنين اليهم في بنائهم وأنظمة تعليمهم فلذلك أحضروا بنائين ومهندسين من بلادهم الاولى — العراق وما اليه — ثم يعود الاستاذ فيشط في هذه النظرية قائلاً : اننا لا يمكننا أن نطمئن كل الاطمئنان الى هذه النظرية لأن بناء هذه الدار غير جميل ولا مستوف لكثير من شروط البناء الفنية على الرغم من جودة التخطيط وحسن الهندسة . فما هو السر في ذلك ؟ هل هو في ان هؤلاء الامراء كانوا يجلبون من العراق مهندسين ومصممين حتى اذا ما جاء المهندس ونظم خريطته وتصميمه عهد بذلك الى عمال وبناة من أهل البلاد ليس لهم فن العراقيين ولا خبرتهم العمارية القيمة فشوهوا البناء وأفسدوا الخطة ببعض الافساد . وهذا هو ما يتجلى بوضوح لمن يدرس حالة الدار النورية دراسة فنية متمعنة . لعلَّ في هذا الكلام بعض الحق فان ما يلاحظهُ الانسان من سوء البناء في الدار النورية من جودة التقسيم والتخطيط يجعلنا نأخذ بقوة بهذه النظرية [٣]

وصفوة القول ان هذه الدار على ما أصابها من اضمحلال وفساد توحي الى المرء بتاريخ علمي مجيد جدير بالقائمين على أمور الاوقاف والمعاهد أن ينقذوها من سوء الحالة التي صارت اليها فان في ذلك حفظاً لسمعة البلاد وتمجيداً لتاريخها العلمي

(١) انظر Rev. Arts Asiat. 1934. 37
(٢) انظر Les Monument Ayyoubides 23—24
(٣) انظر Les Mouments Ayyoubides 24—25